الفصل الثامن عشر
"اعتراف حب"

استقر هشام بسيارته أمام منزله بعدما وصَّل جنة بسلام إلى بيتها، وأطرق دقائق قابعًا بمكانه يستذكر عينيها البريئتين، وابتسامتها الساحرة وضحكاتها الرنانة، هي بحق فتاة جذابة وفاتنة بكل ما تحويه الكلمة من معنى، يودّ لو بإمكانه أن يجذِبَها إلى غياهب حضنه، ويحبّوُّها عن أعين العالم أجمع، ابتسم.. ابتسم رغمًا عنه؛ فسحر الحب لا يضاهيه سحر، ولا يطفئه شيء سوى إحساسك بالفقد أو الخوف من الفراق، فكان هشام يؤمن دائمًا أن الحب ليس رواية في ختامها يتزوّج الأبطال، وأن من يحظَى بذلك فلابد وأنه فريدٌ من نوعه يتمتّع بحب خاص من خالِقِه، أو لعل الله يعوّضه عن حياة كانت تعيسة فبدّلها له من رحمته، يبدو أنه هو الآخر مولعًا بكاظم الساهر ليس مالِك وحده، أو ربما نزار قبّاني.

دخل هشام وألقى السلام عليهم ليس إلا، ودلف مباشرة إلى غرفته لا يريد أن يفصِلَه أحد عن عالمه السعيد الآن، فضلًا عن مراجعته لبعض الأمور في القضية ولا يحتاج إلى تعكير صفو مزاجه، إلا أن حنين ليسَ بوسعها مرور هذا بسلام؛ فلحقت به، وطرقت الباب، ثم دخلت قائلة وهي تمسك بوعاء من عصير البرتقال الطازج:

- إتش! أصُبّ لك عصير.

- لاا.. كفاية عصير بقى.. اعمليلي شاي يا حنين أحسن أنا خرمان.
- خرمان؟! ظابط وبيقول خرمان! سِبت إيه للمجرمين بتوعك.
- كلمة زيادة هبيتك معاهم.
- ياه عليك انتَ صدّقت! ده أنا بهزر.. أحلَى كوباية شاي خمسينة والله.

خرجت وضحك هشام، ثم دلف إلى حمام غرفته ليغتسل ويبدّل ثيابه، وما إن خرج حتى فوجئَ بحنين تمسك بهاتفه تستكشف آخر مستجداته؛ فباغتها هشام يلف ذراعه حولها بقوة آلمتها؛ فتأوهت؛ فأردف قائلًا من بين أسنانه:

- انتِ مش هتبطّلي العادة المنيلة دي؟ يا حبيبتي أنا أخوكي مش جوزك هاه!

حاولت التملص منه، لكن دون طائل من ذلك؛ فقالت بلهجة مسكينة:

- يا إتش يا حبيبي بطّمّن عليك، غلطت أنا كده؟

ثم تحوّلَت نبرتها إلى الجرأة ما إن استطاعت الإفلات من قبضته:

- وبعدين تعالى هنا ماتغيّرش الموضوع، مين اللي متصور معاهم دول، واللي انتَ حاضنها في الصورة دي وبتبص لها بكل عشق وهيام؟!

تجهّمَت تعابيره استنكارًا، وقال:

- عشق وهيام؟! فين ده ياختي؟
- اتفضل يا بيه شوف.

تفاجأ هشام بصورة لم تكن في الحسبان، كيف التقَطَ تلك الصورة دون أن يلاحظ، لكنها راقَت له كثيرًا؛ فأحيانًا الصدف تكون خيرًا من ألف تدبير، ابتسم والتمعَت عيناه؛ فضحكت أخته بخبث، وقالت:

- أيواااا هي دي نفس النظرة والضحكة اللي في الصورة، واللي مستحيل أغلط في تفسيرهم.. هي إيه الحكاية يا إتش؟

- ولا حكاية ولا رواية يا اختي، روحي اعمليلي كوباية الشاي يلّا.

- سلامة النظر يا هشام، الشاي أهوع الكومودينو.

- برِد.. برِد يا حنين.

- كده يا هشام؟ طب والله ما هتحرك من هنا غير لمّا أعرف كل حاجة.

قالتها وتربعت على فراشه، تضع يدها على خدها بتذمّر طفولي، حالما وقف هشام واضعًا كلتا يديه في جانبيه ينظر لها استهجانًا؛ فكان يعرف أنها لن تتركه وشأنه حتى يُشبع فضولها، ولن ينكر أنه في حاجة للتحدث ومشاركة أحدهم ما يعتمل بداخله، فقال على مضض:

- أمري لله.

اتسعَت ابتسامتها وتململَت في جلستها استعدادًا لاستماعها، وجلس هو قبالتها وبدأ يسرد عليها:

- احم.. بصي يا ستي.. هو مفيش موضوع يعنى.. الحكاية بدأت في قضية ماسكها هي اتورّطِت فيها بالغلط، وبعد كده لما اتأكدنا من براءتها

أفرجنا عنها، بس هي لسّه فيه خطر عليها، ومعيّن عليها حراسة ومراقبة؛ فـبضطر إني.. يعني أكلمها وأكون على تواصل معاها.

- تضطر!

- آه.. يعني أطمّن عليه وكده، وساعات بقى بيطُول الكلام، يعني اتعرفنا على بعض وبقينا أصحاب.

- أصحاب!

- يعني مش أصحاب هو..

- امم طبعًا.. مفهوم مفهوم كمل!

ضربها بالوسادة هاتفًا:

– ما هو عشان لسانك الطويل ده ماكُنْتش عايز أقولّك حاجة، قومي بقى من هنا.

– لا والنبي يا هشام.. خلاص أهو هسكُت خالص، كمّل بقى.

رفع كتفيه وأنزلهما بيأس تجلَّى في نبرته:

- حبيتها.. حبيتها قوي يا حنين، مش متخيّل إني ممكن أكون لحد غيرها.

ابتسمَت حنين بفرحة أجبرتها على احتضان أخيها مما أثار تعجبه؛ فأردفت:

- فرحانة ليك قوي يا حبيبي.. كنت متأكدة إن هييجي اليوم اللي يتخطف فيه قلبك وتحب وتعيش أجمل حياة مع واحدة تشوف نفسك فيها بس.. بس لارا هتعمل معاها إيه؟

- لارا.. للأسف دي أكبر مشكلة دلوقتي، ومع ذلك أنا مديون ليها.

- ازاي بقى؟

- لأني كنت متخيل إن الواحد مش شرط يتجوز حد بيحبه وكفاية التفاهم وكده، لحد ما دخلت جنة حياتي، وقتها حسّيت إنّي بتلكك لـ"لارا" عشان أسيبها، رغم إني ماظلمتهاش بس حسيت براحة كبيرة لما سيبتها، وقتها اتأكّدت إني مش هقدر أكمل حياتي مع حد قلبي ميت معاه، مابيدُقش أول ما يشوفه، مابيرتاحش في وجوده، مش بيهرب منه والشغل بالنسبة له رحمة عن وجودها.

- بالظبط يا هشام، وده اللي غُلُبْت أفهّمهولك قبل ما تخطبها، قولتلي الكلام ده البنات بس اللي بتحسّ بيه ومُحن ومعرفش إيه.. ازَّيّ الحال دلوقتي؟

زم فمه استنكارًا للوضع؛ فاستطردت:

- طب بص يا إتش.. انتَ عارف ماما بتحبك قَدّ إيه، مستحيل تعرف إن فيه في قلبك بنت تانية وتجبرك تتجوز واحدة ما بتحبهاش.

- مامتك بتحبني صحيح، بس ماتنسيش قَدّ إيه هي متعلقة بـ لارا وبتحبها، دي من ساعة ما كانت لسّه في ثانوى وهيّ عمّالة تقولّهم لارا لـهشام.. منيرة عملت عشاني كتير وهي اللي ربّتني بعد بابا الله يرحمه، وغلّبتها كتير، مش هقدر دلوقتي أكسر قلبها وأتعبها وأخليها تنفّذ حلفانها وتسيب البيت اللي عاشت عمرها فيه.

شعرت بالأسى حيال أخيها، فلو كان ابنًا لمنيرة من رحِمها لما كان يقدّم مثل تلك التضحية عرفانًا بجميلها عليه، تساءلَت حنين، وقد شق الألم صوتها:

- طب انتَ اعترفت لها بحبك؟

- مابقاش ينفع يا حنين، مش عايز أعلّقها بيّا لدرجة تخليها ماتنساش الوجع اللي هتسبّب لها فيه.

- وفكرك إنها كده مش هتتوجع، وهتنساك بسهولة؟! بص يا هشام.. الواحد ممكن ينسَى مواقف بسيطة جدًا أو ينسَى الألم لفترات مؤقتة، لكن الشرخ اللي بيحصل في القلب عمر الزمن ما هيداويه، عارف.. حتى لو هي اتجوّزت حد تاني وحَبّها أضعاف ما انتَ حبيتها برضه مش هتنساك ولا هتبطّل تلومك على شخصيتها اللي هيتغيّر فيها حاجات كتير بسببك، حتى لو حصل أي مشكلة بينها وبين جوزها أو حبيبها هتلومَك انتَ عليها رغم إنك طلعت من حياتها.. الوجع ده أكبر من إنّه يتداوَى يا هشام، واللي اتسبّب فيه هو بس اللي يقدر يجبُره.

حدقت بنظراته المتألمة؛ فتابعت:

- صدّقني يا هشام عمرك ما هتتخلّص من الذنب ده ولا هتقدر تنساها، أصلًا هتنساها بمين؟ بـ لارا؟! اللي انت مابتطيقهاش، وعلى الرغم من كده حتى لارا هتبقى ضحية في لعبتك رغم إننا عارفين هي عايزة تتجوزك ليه.

نهض هشام بعصبية هاتفًا:

- انتِ عايزاني أعمل إيه دلوقتي؟ أنا مش عارف إيه اللي دخّلني في دوامة الجواز والحب والقرف ده، أنا كنت مركّز في شغلي ومرتاح وشاري دماغي، إنما دلوقتي هركّز في إيه ولا إيه؟ شُغلي أهم من الهبل ده.

حنين مستنكرة:

- بجد يا هشام؟ شغلك أهم؟! بأمارة إنك مابتقدرش تشتغل ولا تعمل أي حاجة قبل ما تسمع صوتها وتطمّن عليها، وده كلامك على فكرة أنا ماجبتش حاجة من عندي.. المسدجات اللي بينك وبينها المكالمات الكتير، خروجك معاها وحمايتك ليها..كل ده أكبر من إنه يتدفّن وتقول هقدر أكمل من غيرها، كان جايز ده يحصل بس قبل ما تعرفها وتتعلّق روحك بيها.

كاد يرد، لكن باغتتها منيرة ودلفت إلى الغرفة قائلة:

- إيه صوتكوا عالى ليه؟

رمق هشام حنين بعتاب، ثم قال:

- لا أبدًا يا منيرة مفيش حاجة.

- طب يا حبيبي بص بقا.. أنا ظبطت مع العروسة وأهلها كل حاجة وهنعمل الخطوبة في قاعة Hola اللي جنبنا، وفاضل بس تروح تدفع لهم الحجز وتتفق معاهم على الحاجات اللي عايزينها، وماتقلقش عاملين قايمة بكل ده.

اختنقَت حنين من ذلك الحديث ومادَت تنفجر من غيظها؛ فهتفت:

- بس يا ماما هشام..

رمقها هشام بتحذير، وهز رأسه نفيًا؛ فقالت منيرة:

- ماله هشام؟ ما تكمّلي سكتّي ليه؟

- لا يا ماما، أقصد إن هشام مشغول في مأمورية ومش فاضي للكلام ده.

ثم قال لسان حالها "فعلًا هو في مأمورية يا ماما، مأمورية حب، ويا إما ينجح فيها ويستريح طول عمره، يا إما يتعَب ويتعِب اتنين تانيين معاه."

اعتذر هشام قائلًا:

- بعد إذنكوا عندي مكالمة شغل مهمة.

خرجت منيرة وحنين من الغرفة؛ فالتقط هشام هاتفه واتصل برقم منتظرًا حتى أتاه الرد:

- ألو.. هشام باشا.

- لازم نتقابل ضروري.

- حصل جديد ولا إيه؟

- البيه كان بيراقبني عشان يضربني بعد محاولته الأولى ما فشلت.

- أوف.. أنا كمان بناءً على المسار اللي قولتلي أمشى فيه وصلت لمعلومة جديدة، أظن هتعجبك وهتحلّ لغز كبير في القضية.

- تمام، هستنّاك في مكاننا الساعة ١٢، واتأكد إن محدش مراقبك.

- تمام يا فندم ماتقلقش.

*****

في شقة أخرى بالزمالك:

- قولتلَك لو انتَ مش قدّها سيبني أنا أعملها.

- كارولين بلاش الأسلوب ده معايا.. كانوا قدّامي وكنت مستنّي لحظة زحمة عشان ماتْكِشِفْش، وخلاص هضرب لكن فجأة اختفوا.

- أوف أوف.. وبعدين أنا هفضل هنا كتير؟ اسمعني.. أنا هنفّذ مهمتي واللي هيفكر يعترض طريقي مالوش عندي غير الموت.

- انتِ هبلة! انتِ بتعادي جهاز أمن وطني، يعني مش هتطلعي منها سليمة.

- لا شكلك انت اللي ناسي إني جيت هنا قبل خمس سنين وطلِعْت بكل سهولة.

- آه، وأول ما دبّت رجلك البلد تاني بشخصية تانية وجنسية تانية وشكل تاني عرفوا برضه بكل سهولة.

- بالظبط، ياريت انتَ تفهم ده، أنا أقدر أنزل الشارع وأعمل كل اللي أنا عايزاه كأي سائح عادي، ومحدش يقدر يتعرّض لي، ولو حصل.. في ظرف دقايق سفارتي هتخرّجني.

- طيب ادّيني آخر فرصة، ولو ماحصلش ابقي اعملي اللي انتِ عايزاه.

- قُدّامك لحد بكرة، بس مش أكتر من كده.

- ماشي.. سلام.

- مع السلامة يا.. حضرة الظابط.

*****

في شقة مالك، كانت سارة في حمام غرفتها تمسك باختبار الحمل، يلكز قلبها أنحاءَ صدرها بنبضاته متلهفًا لمعرفة النتيجة، متردّدة هي في إجراء ذلك الاختبار، ماذا ستفعل وكيف ستكون ردة فعلها في حال إن كانت النتيجة إيجابية؟!

كان مالك وقتئذ يحضّر لـ ليلة رومانسية؛ فأشعل الشموع الفواحة بعبق الحب؛ فيشتعل لهيبه بقلبه فيناديها:

- سارة حبيبتي، يلّا بقى.

جلس على حافة سريره وأمسك هاتفيها ليغلقهما، في تلك الأثناء كانت سارة تقف أمام مرآة الحوض تطالع وجهها الملتهب بعينين مثبّتين وقلب مرتجف، ليأتيها صوت مالك ثانية:

- يا ساسو، إيه يا حبيبتي كل ده؟

فتحت باب الحمام وخرجت منه تسير كالإنسان الآلي بوجه خال من التعابير، إلا من الرهبة وكأنما صرعَهَا قطٌ في ليلة مظلمة، انتبه مالك لتغيّرها، انتفض من مكانه متسائلًا بقلق:

- سارة مالك؟ انتِ كويسة؟

لم ترد وظلت على وضعها كالصنم؛ فأعاد السؤال على مسامعها ثانية؛ فردت آليًا:

- أنا حامل.

- هاه!

انتابتها فجأة نوبة ضحك وفرحة عارمة تجلّت في دموع عينيها:

- أنا حامل يا مالك..حامل.

لم يعرف كيف يرد؛ فالدهشة وعظمة المفاجأة نالت منه؛ فأخذ قلبه ينتفض بين ضلوعه فرحًا مرددًا:

- حا..حامل؟! انتِ بتتكلّمي بجد؟

هزت رأسها بإصرار وفرح، ولم تشعر بنفسها سوى وهي بين ذراعيه بعدما ارتفعَت إنشات عن الأرض، وأخذ يدور بها محتضنًا حبيبته وقُرة فؤاده يضحكان ويضحكان، فما كانت البهجة والفرحة تسعهما، أنزلها مالك متسائلًا:

- بس انتِ عرفتي ازّاي؟

- امم..من اختبار الحمل ده يا سيدي، جنّة طلبتهولي النهاردة من الصيدلية.

- آآه هو ده الأوردر اللي قالت إنه ليها.

أومأت بفرح؛ فاحتضنها مالك مقبلًا جبهتها، ولثم شفتيها بقبلة حارة مرددًا:

- بحبك بحبك يا أغلى حاجة في حياتى.. عارفة؟

- امم؟

- البيبي اللي هييجي ده إن شاء الله هحبه أكتر حاجة في الدنيا، عارفة ليه؟

- أكيد عشان هو ابنك.

- لا.. عشان هيكون حتّة منك، ونِفسي يكون شبهك في كل حاجة، شكلِك وملامحك وشخصيّتك، عايز لما أحضنه أحسّك فيه.

ابتسمت بخجل وتداخلَت معه في عناق عنيف جعل منهما جسدًا واحدًا بروح واحدة، وراح مالك يتساءل:

- ها هنسميه إيه بقى؟

*****

في تمام الثانية عشر صباحًا، خرج هشام من البوابة الخلفية للمنزل متخفّيًا في جنبات الظلام، وبعدما خرج إلى الشارع الرئيسي استقل تاكسي، أخذه إلى العنوان المرغوب حتى استقرت السيارة أمام عمارة مألوفة.. شقة المنيل!

دلف هشام إلى تلك الشقة ليجد هناك من ينتظره:

- هشام باشا!

- اتأخرت عليك؟

- لا أبدًا أنا لسه واصل.. اتفضل يا فندم، ده تقرير بكل المعلومات اللي أمرتنى أجيبها.

أخذ هشام يقرأ تلك التقارير وقد التمعَت عيناه، فأخيرًا سيمسك بالمجرم الذي أرقه شهورًا معتقدًا أن لا أحد سيكتشف جرمه الذي أصبح سلسالًا من الجرائم لن ينفد منها.

استأنف الآخر:

- بس إيه الجرأة اللي هو فيها دي يا باشا؟ يحاول قتلك مرتين!

- لما روحك تبقى في إيد حد، عينك بتتعمِي عن كل شيء حواليك، إلا حاجة واحدة بس.. إنك تخلَص منه.

- طب والخطوة الجاية إيه يا فندم؟

تنهّدَ هشام مردّدًا:

- الخطوة الجاية! اسمع يا سيدي...